أهل الشام

ريبورتاج

ليست مهنة «تنظيف المنازل» أمراً غريباً عن المجتمع السوري، شأنه في ذلك شأن كثير من المجتمعات. لكنّ هذه الظاهرة شهدت تنامياً كبيراً بفعل ظروف الحرب، وما أفرزته من تغييرات اقتصادية واجتماعية. لكل واحدة من السيدات العاملات في هذا المجال حكاية خاصة. إلا أن جميع الروايات تتقاطع عند نقطة مشتركة تتمثل في «لقمة العيش الصعبة»، ما كسر كثيراً من القيود والأعراف الاجتماعية، التي كانت في ما مضى تحول دون تفكير كثير من السوريات في ممارسة هذه المهنة

«كم سنة بيكبروا وبيتخرجوا من الجامعات... وبقعد وبرتاح» (أ ف ب)

سوريات «يحاربن» بمنفضة الغبار!

بورتريه

رشا الشيخ... عندما تتحوّل الإعاقة إلى طاقة

صفاء صلاح

تجلس رشا الشيخ، فوق كرسيها المتحرك في قاعة تعلو فيها أصوات المدربين وهمهمات المتدربين، ونقرات الأوزان الحديدية على الأرض. تحتضن هذه القاعة تدريبات أبطال القوى البدنية الخاصة، في ملعب تشرين بدمشق. تتغير ملامح وجه المرأة الأربعينية بعد توقفها عن التدريب، تقول لـ«الأخبار» بحماس: «لم تمنعني الإعاقة التي ولدت معي من تحقيق ذاتي. اخترت ألعاب القوى لتكون نمط حياة لي، لا رياضة أمارسها فحسب». تؤكد الشيخ أن «ذوي الاحتياجات الخاصة لا يلزمهم سوى التشجيع، للتغلب على المعوقات التي تعترض دروبهم». تقول مؤكّدة: «لا توجد إعاقة، وإنما يوجد مجتمع معيق». تطمح رشا لتطوير إمكاناتها أكثر، كي تتأهل للمشاركة في مسابقات الأولمبياد العالمي في طوكيو (2020)، وتسجل إنجازاً جديداً. خطّت الشيخ سجلها الرياضي الخاص، بوصفها بطلة لألعاب القوة البدنية الخاصة بوزن 73 كغ، في رفع الأثقال. حققت إنجازات في بطولات دولية وعربية، من بينها المركز الثالث في بطولة العالم عام 2006، والمركز الأول في بطولة الشرق الأوسط وأفريقيا عام 2003، والميدالية الذهبية في بطولة غرب آسيا، للقوة البدنية للرياضات الخاصة. تشجع البطلة السورية كل من تعرفه، على ممارسة الرياضة التي تثير اهتمامه. تتوقف عن الحديث لتشرب الماء، ثم تستأنف كلامها بالقول: «تعلمت خلال تسعة عشر عاماً من ممارسة رياضتي، أنني لن أصل إلى ما أريد إلا عبر التمرين الطويل، والمثابرة، والقتال الشديد، أثناء التمرين وخلال المباراة». وتضيف: «أسعى دائماً لإلغاء الخطأ من قاموسي، خاصة في ظل مستوى الإتقان العالي المطلوب تحقيقه في رياضتنا. لا تُقبل إطلاقاً أي حركة ناقصة، ولا يرضى الحكام بأي خطأ، حتى لو ظننا أنه بسيط. تحكيم بطولاتنا أصعب من تحكيم بطولات الأصحاء». تقول ابنة دير الزور، إن «أهم الدروس التي تعلمتها في تدريباتي، ومن خلال فوزي في البطولات، اكتشاف القدرة الهائلة التي تكمن داخلنا».

نينار الخطيب

تبتسم أم سامر، بينما تتحدث عن عملها في تنظيف المنازل. تروي لنا كيف تخلّت عن عملها في المحاماة، لتمتهن التنظيف، في محافظة بعيدة عن مسقط رأسها. تقول: «لدي أبناء، وعليّ أن أدرّسهم... ضاقت بي الأحوال في دمشق، بعد استشهاد زوجي. لم يعد يكفيني ما أجنيه من مهنتي، فقررت العمل في المنازل، لذا اخترت السفر إلى اللاذقية، ففيها لا يعرفني أحد، وتكاليف المعيشة أقل». لا تشعر أم سامر بالخجل من عملها، تؤكد ذلك مرّات عديدة. تقول «قد ينظرون إليّ في بعض الأوقات نظرات مؤذية، لكن ذلك لا يعني لي شيئاً، مقارنة بتأمين حياة أفضل لأبنائي الذين يتابعون دراستهم. ويكبرون أمام عيوني». تشرح موقف عائلتها من عملها: «عندما علم إخوتي بعملي هذا، رفضوه بداية، وعرضوا عليّ المساعدة رغم أوضاعهم المادية الصعبة، لكنني لا أريد أن أثقل عليهم. أستطيع أن أربي أبنائي بنفسي»، تقول. تصمت لحظات، ثم تبتسم وهي تضيف بفخر «كم سنة بيكبروا، وبيتخرجوا من الجامعات، وبقعد وبرتاح. جميعنا مستعدون للقتال دفاعاً عن أبنائنا، ونحن نقاتل ولو بمنفضة الغبار».

السمعة: رأس المال

لا تُعدّ أم سامر حالة فريدة من نوعها في سوريا، إذ تسبّبت الحرب، وما رافقها من تغييرات اقتصادية واجتماعية، في تغيير كثير من السوريين لمهنهم. كما أفرزت إقبال عدد كبير من النساء على العمل في قطاعات عديدة، بعضها كان حكراً على الرجال في ما مضى، سواء لتعويض غياب الرجال، أو لمساعدتهم في تأمين دخل إضافي لتوفير مستلزمات الحياة. وتعتبر مهنة تنظيف المنازل أكثر سهولة مقارنة بغيرها، إذ لا تحتاج إلى رأسمال، أو معدات خاصة، أو خبرة في مجال معين أو حتى شهادات، أو أوقات دوام طويلة وصعبة. تعتمد المهنة بشكل أساسي «على السمعة الطيبة، والتنظيف بإتقان، والأمانة»، وفق تعبير أم ممدوح، التي تمارسها منذ سنوات عديدة. تقول السيدة الخمسينية: «بدأ الأمر بعد أن مرض زوجي، أصيب في عموده الفقري، من جرّاء عمله عتالاً وسائق سوزوكي (سيارة شحن صغيرة) سنوات طويلة. كان لا بد من تأمين مصدر دخل للعائلة، فبدأت العمل في أحد المنازل عن طريق أحد معارفي». وتضيف «أعجبت صاحبة المنزل بعملي، ورحت أعمل في بيوت إضافية، فكسبت سمعة حسنة. إن أردت أن تحصل على المال بشكل مستمر لا بد أن تتقن عملك. أي خطأ سيشوّه رأسمالي، وهو السمعة». لم يوفّر المرض أم ممدوح، فأصيبت بالسرطان، لتواظب على السفر دورياً إلى دمشق للعلاج. كذلك تستثمر هذا الوقت بزيارة ابنها الذي يؤدي خدمته العسكرية في العاصمة. حدّ وضعها الصحي من عملها، لكنها لم تتركه. تقول: «في السنوات الماضية كنت أعمل في منازل ومكاتب عديدة، ولساعات طويلة. اليوم لا أستطيع ذلك، اكتفيت بعدد محدود من المنازل فقط». وتضيف «أصحاب المنازل التي أعمل فيها يقدّرون وضعي، إن تأخرت على موعد، أو أخلفته، نتيجة مرضي، يتعلق الأمر براحتهم معي، فلا يمكن السماح بإدخال شخص غريب إلى المنزل كل يوم».

مكاتب وعمل منظّم

الانتشار المتزايد لعدد العاملات المحليات في المنازل، وإقبال المقتدرين على طلبهن، في ظل ارتفاع تكاليف العاملات الأجنبيات، دفعا عدداً من العاملات «العتيقات» إلى تنظيم هذا العمل. أم أنس، وهي سيدة في عقدها السادس، لم تعد تستطيع العمل في المنازل، ما دفعها إلى تأمين عاملات يحللن مكانها. هكذا، خلقت فرصة عمل جديدة، بالاعتماد على علاقاتها وسمعتها. تقوم الراغبات في العمل بتسجيل أسمائهن لديها، كما تستقبل اتصالات من عائلات تبحث عن عاملات. تتولى أم أنس مهمة الوساطة بين الطرفين، مقابل نسبة متفق عليها، في حال قبلت العائلة بالعاملة وتم الاتفاق معها. تحرص السيدة على متابعة التفاصيل. تتواصل لاحقاً مع العائلات، وتسأل عن مدى إتقان العاملة لعملها. وفي حال وجود أي شكوى، لا تتردد في إرسال عاملة أخرى، إلى أن «يحصل

> يشير بعض السيدات إلى وقوع حالات تحرّش، لكنها تُنسب جميعاً إلى شخصيات لم يلتقين بها

الزبون على طلبه». وفق تعبيرها. «عند ورود شكاوى تتعلق بالأمانة حول إحدى العاملات، أقوم على الفور بشطب اسمها من قوائمي»، تقول. لدى أم أنس نوعان من «خدمات التوظيف»، أوّلهما الاتفاق الشهري، حيث يجري الاتفاق بين صاحبة المنزل والعاملة على راتب شهري مقابل عدد محدد من أيام العمل. أما الثاني، فالعمل بنظام «المهمات»، أي التنظيف لمرة واحدة. ويزداد الطلب على النوع الثاني، والذي يبدأ مع بداية فصلي الصيف والشتاء، «حين يبدأ موسم التعزيل»، على حدّ تعبيرها.

«يوم بيوم»

لا يؤمن هذا العمل دخلاً ثابتاً في كثير من الأحيان، وتضطر النساء إلى التنقل بين منازل مختلفة خلال فترات وجيزة. تقول أم ممدوح: «يتم تحديد الأجر عادة بحسب مساحة المنزل، أو عدد الغرف المطلوب تنظيفها، ونادراً ما يتم احتساب عدد ساعات العمل، ما يجعل الدخل الشهري غير ثابت ومهدداً بالنقص، في حال المرض، أو عدم وجود اتفاق دائم مع عدد من البيوت». كذلك، يعتبر هذا النوع من الأعمال «غير آمن» بالنسبة إلى كثيرات، وهو ما يدفع أبناء هبة إلى الاتصال بها بشكل متكرر خلال عملها. تقول السيدة الأربعينية: «أبنائي يشعرون بالقلق، وأنا أتفهّم ذلك. العمل في منازل الغرباء يخلق جواً من عدم الراحة، خصوصاً عندما تطول ساعات العمل، لذلك أجيب دائماً على اتصالاتهم». تعيش هبة في بيت مستأجر مع أولادها، بعد أن تركهم زوجها مع بداية الحرب في سوريا، وسافر، ثم انقطعت أخباره. أصرّت الأم على أن يتابع الأبناء دراستهم، لتتحمل هي مسؤولية هذه العائلة. بدوره، يحرص أبو سامي على مرافقة زوجته خلال عملها، ومساعدتها، ليشكل الزوجان «ورشة تنظيف صغيرة»، الأمر الذي يرى أنه «أربح وأفضل وأسرع».

يشير بعض السيدات إلى وقوع بعض حالات التحرّش، ومحاولات الاعتداء. لكنهنّ جميعاً ينسبن تلك الحالات إلى شخصيات لم يلتقين بهن، فيغلب على الحديث مصطلح «سمعنا»، ما يجعل التحقق من تلك الحالات صعباً. هذا الأمر أسهم في خلق ما يشبه «عرف» في المهنة، يقضي بضرورة وجود ربة المنزل، خلال العمل، فيما تقبل بعض السيدات بالعمل من دون التقيّد بهذا الشرط، خصوصاً السيدات اللواتي دخلن العقد الخامس من أعمارهنّ.

لقطة

البرامكة... «مول الدراويش»

لمى علي

وسط العاصمة دمشق، قد يستغرق قطع طريق لا يتجاوز طوله 150 متراً، أكثر من 10 دقائق سيراً على الأقدام. أعداد الناس الكبيرة التي توجد يومياً في منطقة «البرامكة»، وتقطع الشارع الواصل بين وكالة «سانا» للأنباء، وجسر «الرئيس»، تجعل المارة يتدافعون (إلى حدّ ما) في أوقات الذروة ليتمكنوا من إكمال مسيرهم. لا يرتبط الازدحام الكبير بعدد قاطني تلك المنطقة الحيوية، بل إنّ تحوّل الرصيف وجزء من ذلك الشارع إلى ما يشبه السوق الشعبية، زاد مما يُعرف بـ«عجقة البرامكة»، ليصبح المدخل الرئيس لكلية الحقوق غائصاً بين بسطات الطعام والملابس والأحذية والمستلزمات المنزلية وأدوات التجميل، وغيرها. ومن باب الدُّعابة، أطلق بعض طلاب الجامعة على تلك البسطات المتلاصقة حدّ «الإزعاج» اسم «مول الحقوق». تشكل تلك السوق مقصداً لكثير من فقراء العاصمة، وتقول أم سعيد بلهجتها المحلية البسيطة إنها لا تجيد الشراء إلا من الأسواق الشعبية، فهي «من جماعة البسطات» حسب تعبيرها. تؤكد السيدة الخمسينية أنها تجد كل ما تحتاج إليه بأسعار تُعتبر أرخص من غيرها، ولو أن النوعية ليست جيدة، إلا أنها «على قد الإمكانيات». وعلاوة على أصوات «زمامير» وسائط النقل المختلفة، تختلط في تلك المنطقة أصوات الباعة من أصحاب البسطات، ينادون على الأسعار الرخيصة والعروض التي تبدو جذّابة، على غرار «القطعة بـ 400 والـ 3 بألف» و«أي قطعة بخمسمية ليرة»، و«تصافي المحلات». يبدأ الباعة عملهم منذ ساعات الصباح الباكر ويستمرون حتى المساء. يحتل حسين ركناً بين البسطات الممتدة على طول الرصيف، ليبيع أنواعاً مختلفة من الأدوات البلاستيكية، ويغطي سقف بسطته بـ«شادر معونة» يردّ مطر الشتاء عنه وعن زبائنه. ويرى الشاب الثلاثيني أن هذا الشارع «أفضل مكان للبيع» نظراً إلى وجود جامعات ومشافٍ وعدد من الدوائر الحكومية، إضافةً إلى مرور عدد كبير من خطوط المواصلات به. يقول: «الحركة لا تهدأ والبيع شغّال، يتوقف فقط عند هجوم دوريات المحافظة التي تطاردنا كل فترة بلا جدوى».

وجوه

سامي سنجار... يُعايد أطفال معلولا على طريقته

بخطّ يده، كتب سامي سنجار على ورقة صغيرة «عسل جبال معلولا»، ووضعها على واجهة متجره الصغير، الذي أعاد افتتاحه في مدينة معلولا بريف دمشق، قبل أشهر قليلة. رتّب الرجل عدداً من المنتجات الزراعية المحلية جنباً إلى جنب، مُرفقاً كلمة «معلولا» بكل منتج. نقرأ: «تفاح معلولا، زيتون معلولا، تين معلولا...». أبو اسكندر، هو صاحب واحد من ثلاثة محالّ فقط، تبيع ما تنتجه أراضي معلولا. وعلاوة على شهرتها التاريخية وغناها الديني والحضاري، فإن أرض معلولا خصبة، وفيها مزايا تضيف إلى منتجاتها الزراعية نكهةً خاصة. يشرح سنجار (51 عاماً)، بالقول: «معلولا في الأساس، مجموعة أراضٍ زراعية واسعة جداً. جاء الإنسان إلى هذه الأرض، استقرّ هنا، وبنى حضارته بعد أن وجد في أرضها مكاناً خصباً ليعيش فيه، وينتج ما يأكل». وخلال الأيام الأخيرة، تدفّقت عشرات الوفود والزوّار على مدينة معلولا الأثرية، وأشعلوا شموعاً في دير مار تقلا، ورفعوا صلواتهم خلال أيام عيد الميلاد المجيد. ولا بدّ لمعظم الزوّار من المرور بجانب محل أبو اسكندر، فقد فتح أبوابه قرب «فج معلولا» منذ ما يزيد عن عشرين سنة. يُقدّم أبو اسكندر ضيافة العيد للأطفال واليافعين الذين يمرّون بجانب محلّه الصغير، ويبادلهم المعايدات والتهنئة، ويعرض عليهم أن يجرّبوا بعضاً من منتجات أرضه. يقول: «أفتقدُ كثيراً لهذه الحالة، أن يقف عندي الأطفال وأمازحهم وأقدّم لهم الحلوى. الآن يمكنني أن أقول إن الفرحة بدأت تعود إلى معلولا».

بريد دمشق

شعب «غروتيسكيّ»

بديع صنيج

منذ عام 2006 تعرّفت إلى معنى «الغروتيسك» في المسرح، بعد حضوري عرض «الحدث السعيد» لمخرجه سامر عمران، الذي أخبرني أن طبيعة هذا النوع المسرحي تتضمن ثلاثة أركان: اللامعقولية، الألم والطرافة، ممزوجاً بعضها ببعض. حينها؛ أعطاني مثالاً تبسيطياً: شخص ممدّد على سرير غرفة العمليات، وأحشاؤه خارج بطنه، كلّما سأله الجراح عن مكان الألم، اهتزّ المريض ضاحكاً، وأشار إلى الطبيب أن ألمه ليس هنا وإنما في مكانٍ آخر، وهكذا.

بعدما يقارب أربعة عشر عاماً، اكتشفتُ أننا شعبٌ «غروتيسكيّ» بامتياز، وإليكم بعض الأدلة: سائق «السيرفيس» عندما يوقفه شرطي المرور، ورغم يقينه بأنه لم يرتكب أي مخالفة، فإنه على نقيض الحنق الذي يضمره، يرسم ابتسامة عريضة على وجهه، ويضع «المعلوم» في يد الشرطي، الذي يكتفي بتغريمه بمخالفة «عدم إبراز التعرفة»، الأقل قيمة. تتسع ابتسامة السائق أكثر، ويعود إلى مركبته راضياً مرضياً، ويرفع صوت المسجّلة على أغنية «سامحتك... من كل قلبي يا محبوبي سامحتك». أما الموظف الحكومي الذي تنطبق عليه مقولة «بالع الموسى على الحدَّين»، فما إن جاءته زيادة الـ20 ألف ليرة سورية، حتى وصل سعر صرف الدولار إلى الألف، في سابقة تاريخية، ارتفعت معها أسعار السلع بجنون غطّى على الزيادة بعجرها وبجرها. ولأن ذاك الموظف قارئ ممتاز للتاريخ، اشترى فروجاً مشوياً استهلك ما يزيد عن ثلث الزيادة، قائلاً في سره، مع بعض التحوير، «خربانة وخربانة.. خلّيها تشتّي خرااااب».

«الأحداث السعيدة» لا تقف عند ذلك الحد، ففرحة أم العسكري لا تسعها الأرض، وهي تضع حذاء ابنها الذي كان يرتديه في قدم بترتها قذيفة هاون، في جوف المدفأة. لتشعّ، وينتشر وهجها في أرجاء الغرفة المُشبّعة برطوبة جبال مصياف، بعد نفاد الحطب، وعدم توافر المازوت والغاز، وانقطاعات الكهرباء التي جعلت البلاد كلّها تشتعل وتنطفئ مثل شجرة الميلاد، مع استبدال أغنية «ليلة عيد» بما يتيسر من حفلات «صقر العتابا» و«لهلوبة الميجانا». ولأن نَفَسَ هذا الشعب كاد أن ينقطع، تماهى أبناؤه مع النَّفَس القصير في كل شيء، حتى في الأدب. فغرّخوا شُعراءَ «هايكو» أكثر من اليابان وفرنسا وبريطانيا، وياتوا على يقين تام بأن إبداعاتهم أهم من «الدَّرب الضَّيّق في أقصى المعمورة» للمعلّم «باشو». ولعل الشيء الصحيح الوحيد هو «دربهم الضيق»، إذ ضاق الحال إلى الدرجة التي جعلتهم يُقنّنون، حتى في استعمال المناديل الورقية، فعلبة المحارم باتت بـ700 ليرة. وإن أرادوا أن يُنَفِّخوا» على وضعهم المأساوي، فإن ثمن السحبة الواحدة من نَفَس نرجيلة منزلي، لا يقل عن خمسين ليرة، وفقاً لحسابات أحدهم. أما بيضات القفراء، بحسب التسمية الشعبية، فالصحن الواحد منها بـ1400 ليرة، من دون أن نعلم ما علاقة «بيضاتنا» بالدولار. مثلها في ذلك، مثل البندورة البانياسية، التي وصل سعر الكيلوغرام الواحد منها إلى 400 ليرة، بعدما كان قبل الحرب 15 ليرة. هكذا؛ صار صحن «الجظ مظ» مُعرَّضاً للانقراض من على موائد هذا الشعب، الذي لم يتبقَّ له سوى الملفوف (ثمن الكيلو 140 ليرة) الذي يطيحه مع الرز، ضاحكاً على نفسه بأنه «محشي الكسالى» لأنه من دون لفّ. ومن دون لفّ ودوران، لو سمع صموئيل بيكيت، بالعبثية التي نعيشها، لأعاد النَّظر مثلنا في «غودو» بذات نفسه. ولترك «فلاديمير» و«أستراجون» يُدَخّنان اللُّفّ من شتلات «حمَّام القراحلة» أو «القدموس» أو «جبال اللاذقية» السمراء، واستعاض عن الشُّجرة العارية في مسرحيته، بإنسان سوريٍّ، بكامل لا معقوليته، وفرادة عريه وعزلته وألَمه وطرافته.